الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وجهوده في خدمة القرآن وعلومه

الدكتور: نبيل موفق

معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي

Summary

Sheds this search light on one of the most commentators of his time , a struggling Imam and the interpreter renewed brand Muhammad al-Maghili author of the full moon illuminating interpretation Sciences , both in terms of the age in which he lived , and the conditions of life that the grapes , and the impact of all this in the scientific, cultural and advocacy configured , as this paper illustrates some of the efforts made by this imam in order to enlighten human minds the Holy Quran and its Sciences and correct tongue and evaluation through the teachings of the Arabic language and its rules .

ملخص

يسلّط هذا البحث الضّوء على أحد أشهر المفسّرين في عصره وهو الإمام المجاهد والمفسّر المجدّد العلاّمة محمّد بن عبد الكريم المغيلي صاحب كتاب البدر المنير في علوم التّفسير، وذلك من حيث العصر الذي عاش فيه، وظروف الحياة التي عاصرها، وتأثير ذلك كلّه في تكوينه العلمي والثّقافي والدّعوي، كما يوضّح هذا البحث بعض الجهود التي بذلها هذا الإمام في سبيل تنوير العقول البشريّة بالقرآن الكريم وعلومه وتصحيح اللّسان وتقويمه من خلال تعاليم اللّغة العربيّة وقواعدها.

مقدّمة

من العلماء الذين أسهموا إسهاما بالغاً وفعّالاً في خدمة القرآن وعلومه، وإثراء الدّراسات القرآنية، ونشر علوم اللّغة العربيّة خدمةً للقرآن الكريم، وتصحيح ثقافة الشّعوب وتربية النّشء على حفظ القرآن الكريم وتجويده، ومعرفة أحكامه والعمل بها في بلاد العرب والعجم الإمام الهمام والمجدّد المصلح والفقيه المفسّر الشّيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني الجزائري، دفين منطقة توات بأدرار في الجنوب الجزائري(ت909هـ)، وذلك لما كان يحمله من حماسة للدّعوة الإسلامية التي أوقدها العلم الذي حصّله من شيوخه والإيمان الذي عمر قلبه ويشهد لذلك عمله وأخلاقه التي ظهرت على جوارحه وهذّبت أقواله وأفعاله، فأدّى ذلك كلّه إلى تغيير ملموس وتأثير بالغ في حياة المجتمع الذي يعيش فيه.

وقد اتّسمت حركته الدّعويّة والإصلاحية بالأصالة والاجتهاد في القضايا الدّينية والدّنيوية مع الاهتمام البالغ بالجانب العلمي والتّعليمي والتّربوي والدّعوي، إذ يعدّ أوّل من أنشأ مدارس قرآنية في مدن إفريقية كثيرة وتخرّج على يديه علماء أجلاّء حملوا لواء العلم والدّعوة بعده.

وهذه ورقة بحثيّة نريد من خلالها كشف الغطاء عن بعض جهود هذا الإمام في خدمته للقرآن وعلومه عسى أن تكون سبباً في تنوير درب من له غيرة عن القرآن الكريم، فتزوّده بالهمّة العالية للصبر على طريق خدمة ذلك المقصد النّبيل.

ومن أجل أن تلمّ هذه الورقة بأهداف الموضوع قسّمتها إلى مبحثين كلّ مبحثين وكلّ مبحث إلى ثلاثة مطالب؛ وذلك كالتّالي:

– المبحث الأوّل: نبذة مختصرة عن حياة الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي وعصره.

-المطلب الأوّل: حياته.

- المطلب الثّاني: ظروف عصره.

- المطلب الثّالث: مؤلّفاته وتلاميذه وثناء العلماء عليه.

- المبحث الثّاني: جهود الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي في خدمة القرآن وعلومه.

-المطلب الأوّل: جهوده في تفسير القرآن الكريم.

-المطلب الثّاني: جهوده في نشر اللّغة العربيّة.

-المطلب الثّالث: جهوده الدّعويّة انطلاقاً من تعاليم القرآن الكريم.

المبحث الأوّل

نبذة مختصرة عن حياة الإمام

محمّد بن عبد الكريم المغيلي وعصره

-المطلب الأوّل: حياته.

- الفرع الأوّل: مولده.

يعتبر الشّيخ الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي من علماء القرن التّاسع والعاشر الهجريين الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، وهو من أكبر المصلحين البارزين الذين قاموا بواجب إصلاح أحوال النّاس وأخلاقهم ودينهم انطلاقاً من تعاليم القرآن الكريم، وقد اشتهر بكثرة رحلاته العلميّة والدّعويّة من أجل نشر الإسلام وتعاليمه ونشر اللّغة العربيّة وعلومها وذلك لفهم آيات القرآن فهماً صحيحاً وسليماً.

وقد ولد العلاّمة المغيلي في مدينة تلمسان الجزائريّة لكنّ المصادر التي ترجمت

لحياته أغفلت تحديد تاريخ مولده غير أنّ وفاته كانت سنة 909هـ، وممّا يذكره من اعتنى بترجمة الإمام أنّه لم يهتم بوضع ترجمة خاصة به؛ ويرجعه بعض الباحثين إلى جهاده المتواصل ونضاله المستمر في سبيل خدمة القرآن وعلومه، ورحلاته الكثيرة في عمق القارة الإفريقية من أجل نشر اللّغة العربية ومحاربة البدع والأباطيل والوثنية[1].

– الفرع الثّاني: طلبه وتحصيله للعلم.

سبق وأن ذكرنا أنّ العلاّمة المغيلي قد نشأ في تلمسان، غير أنّه رحل منها إلى مدن متعدّدة ومناطق كثيرة، فقد رحل إلى العاصمة الجزائر من أجل مقابلة إمام المفسّرين في عصره وهو الإمام العلاّمة عبد الرّحمان الثّعالبي (ت875هـ) فأخذ عنه علم التّفسير وحضر دروسه في شرح كتابه الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ولازمه ملازمة لصيقة، وقد أعجب الإمام الثّعالبيّ بالطّالب المغيلي وبفطنته وذكائه فزوّجه ابنته اعترافاً منه بعلمه وفقهه وأدبه.

ثمّ رحل الغمام بعدها إلى مدينة بجاية حيث أخذ عن علمائها التّفسير والحديث وفقه الإمام مالك، وكانت بجاية آنذاك إحدى الحواضر العلميّة والثّقافيّة في العالم العربي والإسلاميّ، ومن بين شيوخه الشّيخ الإمام العلاّمة أحمد بن إبراهيم البجائي(ت840هـ) وقد كان مشهوراً بعلم التّفسير والفقه، والإمام العلاّمة منصور بن علي عثمان أبو علي الزّواوي المنجلائي من فقهاء وعلماء بجاية ومن ذوي العصبة والقوّة فيها، كما أخذ عن غيرهم منهم يحيى بن بدير بن عتيق التدلسي القاضي من كبار فقهاء المالكيّة من أهل تدلس بالجزائر فقرأ عنه الصّحيحين والسّنن وموطّأ الإمام مالك، كما أخذ عنه الفقه المالكي، وأخذ عن الإمام العلاّمة الجزائري ابن مرزوق (ت842هـ) والفقيه التّلمساني ابن الحابك (ت867هـ)،

والعلاّمة الجزائري أحمد بن يحيى الونشريسي (ت914هـ)، وأخذ عن ابن مرزوق الكفيف (ت901)، وغيرهم كثير ممّن أسهموا في تكوين الإمام المغيلي تكويناً علميّاً فانبرى بعد ذلك لتفسير القرآن والتّبحّر في علومه[2]

وهذا ما يجعلنا نقول بكلّ فخر أنّنا امام قامة من قامات العلم والتّفسير والفقه والدّعوة في الجزائر ممّن كان لهم الفضل في نشر الدّراسات القرآنية والفكريّة في الجزائر والتي أسهمت بشكل كبير في المحافظة على الهويّة الوطنية والمرجعيّة الدّينية والطّريقة السلوكيّة والعادات الاجتماعيّة والتّقاليد المرضية على أرض الجزائر.

-المطلب الثّاني: ظروف عصره.

-الفرع الأوّل: الأوضاع السّياسيّة.

العلاّمة المغيلي من علماء القرن التّاسع والعاشر الهجريين(15م)، وقد عاش في الجزائر وصحرائها وغربها وشرقها، وقد كانت تمتاز الأوضاع السّياسية آنذاك بتوازن نسبي بين الدّول المغاربيّة الثّلاث؛ إذ كانت ثلاثتها تسير في ذلك الزّمن نحو التّدهور بأثر فعل المرينيّين (698هـ-706م) واحتلالهم للمغرب الأوسط عام737هـ لمدّة حوالي 20 سنةً قبل أن تقوم الدّولة الزّيّانية بمقاومة الخطر المريني وأن تصمد أمام هجماتهم المتكرّرة إلى سنة814هـ، ثمّ دهمها خطر الحفصيين الذين حاولوا مراراً أن يفرضوا سلطتهم على الدّولة الزّيّانية مستغلّين الاضطرابات النّاتجة عن تنافس أمراء تلمسان على الملك .[3]

وهذا ما ترك الوحدة المغاربية في مهبّ الرياح، وقد منعها ذلك من التّصدّي للحركة الصّليبيّة التي أخذت توجّه هجماتها على أراضي المسلمين بالأندلس وسواحل المغرب، ولاسيما بعد سقوط غرناطة عام 897هـ[4].

-الفرع الثّاني: الأوضاع الاجتماعية.

لاشكّ أنّ تلك التّقلّبات والاضطرابات السياسية سوف تنعكس على الأوضاع الاجتماعية التي أصبحت تتّسم بتزايد نفوذ القبائل البدويّة في مختلف المناطق وتناقص سلطة الملوك، وقد اضطرّ هؤلاء إلى إغراء القبائل المؤيّدة لهم بمنحها الإقطاعات وتكليفها بجمع الجبايات وحراسة قوافل التّجّار، ممّا أدّى إلى تحوّلات سكّانية هامة، ويضاف إلى ذلك هجرة الأندلسيّن من مسلمين ويهود التي ما فتئت تزداد أهمّية بقدر ما ظلّ خطر النّصارى يزداد تفاقما[5]

وقد ساعد على انتعاش الزّراعة والصّناعة هجرة الأندلسيّين إلى أقطار المغرب العربي فأدّى ذلك إلى انتعاش النّشاط التّجاري لما كان لليهود المقيمين في المغرب العربي من اتّصالات وثيقة باليهود القاطنين في جزيرة ميورقة وفي اسبانيا شمالاً وفي ناحية توات جنوباً وبما كانوا يملكون من رؤوس أموال وافرة.

وقد نتج عن ذلك أن الوضعية المالية عند ملوك تلمسان وفاس قد سادت بصفة محسوسة وأنّ هؤلاء أصبحوا يعتمدون خاصة على محصول الضّرائب المفروضة على التّجارة الخارجيّة ونظراً للدّور الأساسي الذي كان يلعبه اليهود في الحركة التّجارية فإنّ هؤلاء أخذوا يتمتّعون بامتيازات كبيرة وأصبحوا يجدون لدى رجال السّلطان معاملة حسنة تتمثّل خصوصاُ في إعفائهم من الجزية ومن اللّباس المفروض على أهل الذّمّة ولاسيما في منطقة توات.[6]

هذه باختصار الأوضاع التي سادت في القرن التّاسع والعاشر الهجريين بمدينة تلمسان، وهما الزّمان والمكان الذين عاش فيهما الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي.

-المطلب الثّالث: مؤلّفاته وتلامذته وثناء العلماء عليه.

-الفرع الأوّل: مؤلّفاته وتلامذته.

العلاّمة المغيلي كان صاحب قلم سيّال مشهوراً في المشرق والمغرب وعند خاصة العلماء، وقد ذكر بعض من ترجم له بعض مؤلّفاته[7] والتي منها:

1- البدر المنير في علوم التّفسير.

2- شرح مختصر خليل بإيجاز وهو غير تام وعليه حاشية سمّاها إكليل المغني.

3- شرح بيوع الآجال من كتاب ابن الحاجب الفقهي.

4- تأليف في المنهيات وموضوعه يتّصل بوظيفة الحسبة على ما يبدو من عنوانه.

5- مختصر تلخيص المفتاح وشرحه في البلاغة.

6- شرح الجمل للخونجي في المنطق.

7- مقدّمة ومنظومة في المنطق وله عليها ثلاثة شروح.

8- تنبيه الغافلين عن مكر الملبّسين بدعوى مقامات العارفين، وهو ضدّ أدعياء التّصوّف على ما يبدو.

9- شرح خطبة المختصر.

10- مقدّمة في العربيّة.

11- كتاب الفتح المبين.

12- فهرست المرويات.

13- عدد من القصائد في مدح النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- وفي غيره من الموضوعات.

14- رسالة مصباح الأرواح في أصول الفلاح المغيلي والصّراع مع اليهود.

ومن أشهر تلامذته الشيخ العاقب بن عبد الله الأسلمي الأعدسي، وقد ترجم

له الشيخ أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج فقال: "فقيه نبيه زكي الفهم حاد الذّهن وقّاد الخاطر مشتغل بالعلم في لسانه حدّة، له تعاليق من أحسنها تعاليقه على مختصر خليل"[8].

ومن تلامذته أيضاً الشيخ شمس الدّين النّجيب بن محمّد التجداوي والأنوسماني، وقد وصفه أحمد بابا بقوله: "أحد شيوخ عصره معه فقه وصلاح شرح مختصر خليل بشرحين كبير في أربة أجزاء، وصغير في جزأين، وله أيضاً تعليق على المعجزات الكبرى للسيوطي"[9].

-الفرع الثّاني: ثناء العلماء عليه.

يشبّهه كثير من المؤرّخين الذين كتبوا عنه وعن جهاده ودفاعه لنشر الإسلام الصّحيح ومحاربة البدع ونشر تعاليم القرآن بشيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- والذي تأثّر به وبأفكاره وكتبه ورسائله التي كانت تصل إلى المغرب العربي، ويقال أنّه كانت بينهما مراسلات وهو ما أجاب عنه الدّكتور عمّار هلال في مقال له نشر بجريدة المجاهد الجزائرية بتاريخ 1985/6/20م قال: "... ولكن ما يسمح لنا بالاعتقاد وهو أنّ الإمام الجزائري المغيلي نفي إلى الصّحراء الجزائريّة الشّاسعة حيث كانت المواصلات حينئذ من الصّعوبة بمكان ومع هذا فإنّ فتاتاً من المعلومات التي وصلتنا من تلك المنطقة الواسعة للشّرق الأوسط تجعلنا نفكّر بأنّ ابن تيمية قد تمنّى كثيراً أن يعرف الإمام الجزائريّ ابن عبد الكريم المغيلي".

كما كانت له مراسلات ومناظرات مع الإمام السيوطي نقلها ابن مريم في كتابه: "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" وذلك أثناء ترجمته للعلاّمة المغيلي.

وقد قال عنه الإمام الكبير السّخاوي:"...ارتحل في سنة 810هـ فأقام بتونس شهرين ثمّ قدم القاهرة فحجّ منها وعاد إلى إليها ثمّ سافر إلى الشّام فزار القدس وتزاحم عليه النّاس بدمشق حين علموا فضله وأجلّوه"[10]

وقال عنه ابن مريم:"... خاتمة المحقّقين الإمام العالم العلاّمة المحقّق الفهّامة القدوة الصّالح السني الحبر، أحد أذكياء العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة من الفهم والتّقدّم والنّسبة في الدّنيا المشهور بمحبّة النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- وبغض أعدائه... وكان رحمه الله مقداماً على الأمور جسوراً جرئ القلب فصيح اللّسان محبّا للسنّة جدلياً نظّاراً".[11]

المبحث الثاني

جهود الإمام المغيلي في خدمة القرآن وعلومه

-المطلب الأوّل: جهوده في تفسير القرآن وشرحه.

عاصر العلاّمة محمّد بن عبد الكريم المغيلي جلّة من علماء التّفسير والذين كان منهم العلاّمة عبد الرّحمان الثّعالبي، فقد كان وحيد زمانه في التّفسير واللّغة العربية والفقه والحديث، فنشأ الشيخ المغيلي في مجالس وحلق العلم التي كان يعقدها هؤلاء العلماء فأخذ عنهم علم التّفسير وعلوم القرآن حتّى أصبح من أشهر المفسّرين في عصره، وقد ألّف كتاباً في التّفسير سّماه:"البدر المنير في علوم التّفسير" وهو كتاب مطبوع متداول.

وقد بدأت باكورة هذا الجهد الذي يعدّ من أجل تراثه الذي تركه للأمّة بظهور مناهج التّدريس بحاضرة تلمسان التي نشأ فيها، فقد كان التّعليم التلمساني ينقسم إلى قسمين: قسم يعطى بالمساجد وقسم يعطى بالمدارس، وكانت كلّ المساجد في القرى والمداشر والمدن يحفظ بها القرآن والحديث في الأوّل، ثمّ يدرّس التّفسير

والفقه واللّغة والأدب، وأمّا المساجد الجامعة فإنّها شبه كلّيات تدرّس بها العلوم المتعلّقة بالقرآن من تفسير وقراءات وغيرها، ومن بين هذه المدارس مدرسة ابني الغمام وهما أبو زيد عبد الرّحمان وأبو موسى عيسى من أهل برشك، والمدرسة التّاشفينية أسسّها أبو تاشفين ابن أبي حمّو الأوّل، والمدرسة اليعقوبيّة عام 765هـ، وغيرهما من المدارس في حاضرة تلمسان، فقد كانت هي محضن العلم والعلماء يلتقون فيها ويلقون فيها دروس التّفسير والعلم، وقد كان من بينهم الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي إذ كان حينها يلقي دروسه في التّفسير وعلوم القرآن، فدرّس لامية الشّاطبي، وتفسير ابن عطيّة، وتفسير الثّعالبي، والكشّاف للزّمخشري، وأنوار التّنزيل للبيضاوي، والتّهذيب للبيهقي والاستذكار للدّارمي.[12]

وكلّ هذا يدلّك على جهوده الكبيرة في خدمة القرآن الكريم وعلومه، ولم يكن علم المغيلي حبيس جدران حجر المساجد ودور التّعليم وإنّما كان له أثر في الواقع، فقد اشتهر بقوّة إيمانه وتعلّقه الشّديد بالقرآن والحديث وفتاوى العلماء، ممّا جعله لا يؤمن بالانفصام الذي يكون بين العلم والعمل أي بين النّظر والتّطبيق، وأسهم إسهاماً بالغاً في ترسيخ العقيدة الصّحيحة في قلوب النّاس لاسيما في الدّول والمناطق الإفريقيّة التي حلّ بها ونشر فيها دعوته، وكان من أبرز خدماته وجهوده في نشر الوعي بالقرآن:

1- أنّه خرّج زمرة هائلة من التّلاميذ الذين وعوا عنه علوم القرآن فراحوا ينشرونها في النّاس وفي كلّ المناطق، فكانت بذلك حلقة وصل بين الإمام المغيلي وبين النّاس الذين لم يلتقي بهم أو الذين لم يعش في عصرهم وإنّما وصلهم علمه وجهوده عن طريق تلامذته.

2- إنشاؤه للكتاتيب في كلّ منطقة يحلّ بها من أجل تحفيظ كتاب الله تعالى

للنّاس، وتدريس علومه وتعاليمه للنّاشئة، وقد ساعده على ذلك علاقته الحسنة بالسّلاطين والأمراء وأصحاب الأموال.

3- جمعه للكتب وإنشاؤه لمكتبات معتبرة في كلّ مدرسة قرآنية ينشؤها فقد رحل بكتبه إلى بالد السّودان، وقد كانت جهوده هذه النّواة الأولى لإنشاء مكتبات علمية معتبرة.[13]

وقد كان فهمه لبعض الآيات يحتّم عليه أن يقوم بأعمال قد لا يرتضيها السّلاطين بل غيره ممّن هو محسوب في زمرة أهل العلم، من ذلك فهمه لقوله تعالى:"يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنّصارى بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين" الآية 51 من سورة المائدة.

فقد نشأ موقفه من يهود توات وهي قضية مشهورة عنه، فقد حاجّ بعض العلماء والفقهاء الذين خالفوه فيها، وبادرهم بفتح المناظرة والمشافهة معتمداً على فهمه الرّاسخ لهذه الآية الكريمة، وما تهدف إليه من فقه ومقاصد، فأنزل ذلك المعنى على واقعه المعيش فاقتنع بتلك الفكرة وجاهد من أجلها حتّى اقتنع بها كثير من تلامذته وفئات عريضة من النّاس بل ومن السّلاطين والحكّام أيضاً.[14]

ومن جهوده في نشر علوم القرآن وخدمته لكتاب الله أنّه كان سبباً في وصول القراءات والتّفسير واللّغة العربية إلى النّيجر وإلى مدن كثيرة فيها منها بلدة"تكيدا" وبلدة "آير"، وأيضاً في مدن نيجيريا وخاصة في مدينة "كانو" أين التقى بحاكمها محمّد رمفا وقد كتب له رسالة في أحكام الشّرع المؤسّسة على القرآن والسنّة وحثّه على تطبيق ما جاء فيهما من أحكام، وقد بلغت ثقة الحاكم في الإمام المغيلي أن جعله قاضياً عنده في بلاده، فكان منصب القضاء للمغيلي فرصة في زيادة تعميق فهم

القرآن وتفسيره للنّاس في تلك البلاد.

ثمّ رحل بعدها إلى مدينة "كنشا"في شمال نيجريا وظلّ بها مرابطاً ردحاً من الزّمن يدرّس أهلها وقد عقد لهم حلقات للدّراسات القرآنية والفقهيّة، وتأثّر به السّلطان إبراهيم ماجي الثّاني، ونصحه الإمام المغيلي بالتّمسّك بالقرآن وأحكامه فكان ذلك من حسنات المغيلي وجهوده المشكورة في خدمة القرآن وعلومه.[15]

- المطلب الثّاني: جهود العلاّمة المغيلي في خدمة اللّغة العربيّة.

لا شكّ أنّ اللّغة العربية هي اللّغة الأم التي تجمع بين الشّعوب العربية والغسلامية، وهي لغة القرآن الكريم، وجهود الإمام المغيلي في خدمة القرآن وعلومه لا تكتمل إلاّ بعد أن ينشر اللّغة العربية إذ هي الطّريق لفهم مراد الله تعالى، فلا يمكن فهم الإسلام فهماً صحيحاً إلاّ إذا فهمت اللّغة العربية، وهي أيضاً من الوسائل الفعّالة التي تساعد على إيجاد التّقارب الفكري بين شعوب الأمّة الإسلامية، فتتقارب الأفهام وتتماسك القلوب، وللغة العربية فضل في نشر الحضارة الإسلامية وثقافتها في أرجاء العالم.

ولقد كان الإمام المغيلي من العلماء الذين فقهوا هذا الأمر جيّداً فأخذوا على عاتقهم نشر تعاليم اللّغة العربية في البلدان التي رحلوا إليها بالتّدريس وبناء المدارس وغيرها من الجهود.

فهو كما ذكرنا نشأ في مدينة تلمسان وقد كانت فيها مدارس لتحفيظ القرآن الكريم وأقسام أخرى بالمساجد تدرّس تعاليم اللّغة العربية والنّحو والأدب، وقد أسهم المغيلي إسهاماً بالغاً في إنجاز تلك المهمّة لقناعته أنّه لا يفهم القرآن والدّين إلاّ من حيث تفهم اللّغة العربية، ولم يقتصر الإمام المغيلي في نشر اللّغة العربية

وتعليمها للنّاشئة في بلده وإنّما حينما رحل إلى السّودان أبلى بلاء حسناً في نشرها وتعريف النّاس بها وبقواعدها، ويظهر ذلك جلياً في عدد التّلاميذ الذين درسوا عنده العربية والمكتبات التي أنشأها.

وقد بدأت جهوده في نشر اللّغة العربية والقرآن الكريم حينما أنشأ مدرسة قرآنية للصّغار وأخرى للكبار لتعليم علوم الدّين واللّغة العربية.[16]

ومن أشهر تلاميذه الذين أسهموا وأكملوا مسيرة شيخهم الشيخ محمّد بن أحمد التراخي فقد كانت له إسهامات علمية في نشر اللّغة العربية والثّقافة الإسلامية في السّودان وغيرها من مناطق إفريقيا، وممّا ساعد الإمام المغيلي في نشر دعوته ونشر اللّسان العربي في كثير من المناطق التي رحل إليها ارتباطه الوثيق بحكّام تلك المناطق من أجل رفع راية الإسلام مثل حاكم السودان في عصرهأسيكا محمّد، وكذا سلطان سنغي والذي جعل المغيلي مستشاراً عنده فكان من إشاراته عليه ضرورة فتح البلدان الكافرة الوثنية المجاورة ونشر الإسلام فيها، وأسهم في نشر اللّسان العربي فيها.[17]

كما أنّه راسل عدداً من الحكّام فكتب لهم فتاوى في أمور الدّين والسياسة وغيرهما ممّا جعل أولئك الحكّام يهتمّون بالعلم وطلاّبه أكثر من ذي قبل وفتحوا مدارس في مدن كثيرة لتعلّم اللّغة العربية والقرآن الكريم.

وخلاصة الأمر أنّ المغيلي-رحمه الله- كان له شأن عظيم في نشر تعاليم اللّغة العربية والذي كان له أثر بالغ في تغيير ثقافي واجتماعي وسياسي هيّأ لنسر الإسلام والدّعوة الإسلامية ونبذ الكفر فقد كان بحقّ واحداً من جملة الأعلام والرّوّاد الأوائل الذين حملوا على عاتقهم همّ الإسلام ونشره في ربوع العالم.

- المطلب الثّالث: جهود العلاّمة المغيلي الإصلاحية انطلاقاً من تعاليم القرآن.

ممّا يذكره المؤرّخون عن شخصية الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي أنّه كان رجلاً شديداً في الحق رجّاعاً إلى القرآن الكريم والحديث وفتاوى أئمّة الشّريعة، وهذا ما جعله يرفض التّساهل في تطبيق النّصوص الشّرعية والتّمسّك بالجدّيّة والحزم في المجال الدّيني ولم يقبل السكوت عمّا كان يوجد من تناقض صريح بين الجانب النّظري والعملي للإسلام وبين الواقع المعيش أي الجانب التّطبيقي.

وهذا التّباين بين المجالين النّظري والتّطبيقي قد يلاحظ في مختلف الأزمنة إلاّ أنّه يتفاوت عمقاً حسب العصور، وأغلب الحركات الإصلاحيّة التي قامت في فترات عديدة تهدف إلى القضاء على ذلك التّباين، ومحاربة البدع والانحرافات، والعودة بالإسلام إلى أصالته وصحّته.

والظّاهر أنّ أقطار المغرب في عصر المغيلي كانت في حاجة ماسة إلى إصلاح، لما كان يشاهد من تواطؤ كثير من العلماء مع رجال السّلطة على التّساهل في تطبيق النّصوص الشّرعية، وسكوت البعض الآخر ممّن لم يوافق على ذلك.

وكان القيام بحركة إصلاحيّة من هذا النّوع سواءً في عصر المغيلي أم في غيره من العصور الأخرى يتطلّب كثيراً من الشّجاعة والصّرامة والالتزام، كما كان الأمر بالنّسبة لعبد الله بن ياسين وللمهدي بن تومرت وغيرهما، والظّاهر أنّ عزم المغيلي على القيام بمهمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كان يشكّل أهمّ داع لمغادرته مدينة تلمسان وتوجّهه إلى ناحية توات بأدرار في الجنوب الجزائري، والتي أقام فيها سنوات عديدة من أجل مهمّة الإصلاح والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.[18]

ويمكن أن نقول أنّ قضية يهود توات من بين القضايا التي تمثّل حرص الإمام

المغيلي على الدّعوة والإصلاح، فقد كان اليهود يتمتّعون بامتيازات كبيرة كانت معروفة قبل اهتمام المغيلي بقضيّتهم، وقد كان للعلماء قبله نظرة لا تختلف كثيراً عن نظرته منهم العلامة قاسم العقباني(ت854هـ).

وقد كان من أمر يهود توات أنّهم بفضل تلك الامتيازات أصبحوا لا يدفعون الجزية وخفّف السّلاطين عنهم كثيراً من الأحكام الخاصة بهم ممّا أثار العلماء والفقهاء في ذلك الوقت وقد كان منهم المغيلي-رحمه الله- فقد وصل به الأمر إلى تغيير المنكر بيده وهذا ما ميّزه عن غيره من العلماء، فشخصيته تمتاز بالغيرة على الإسلام وتجنّب المداهنة ومصانعة رجال السّلطة والشّجاعة في تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وهو عنوان أيّ حركة إصلاحيّة.

فكانت قصور "توات وتيكرارين وتمنيط وأسملال وأولف وزاوية كونته وفتوغيل"، كلّها أسماء تشهد لهذا الإمام دهاءه ودعوته هذه المناطق التي زارها وصال وجال فيها يقوم بمهمّة الدّعوة إلى الله والإصلاح، فنشر المبادئ الإسلامية الصّحيحة النّقيّة كما عرفها السّلف الصّالح رضوان الله عليهم، وقد احتضنته القبيلة العربية الأصيلة بني سعيد حيث عاش بينهم كواحد منهم يحترمونه ويبجّلونه ويستمعون إلى دروسه ويتّبعون دعوته حتّى بدأ يكتشف دسائس اليهود الذين كانوا يعيشون في المنطقة منذ زمن بعيد، وكانوا يستحوذون على السّلطة الاقتصادية والموارد المالية وأفسدوا الأخلاق والذّمم حيث أنّهم كانوا يتحكّمون في أكبر كنز في الصّحراء الجزائريّة الشّاسعة وهو الماء كما أنّهم قاموا ببناء معبد لهم في واحة تمنطيط خارقين بذلك العهود التي بينهم وبين المسلمين وقد شنّ عليهم الإمام المغيلي حرباً شعواء لا هوادة فيها لوضع حدّ نهائي لتجاوزاتهم واستهانتهم بالدّين الإسلامي لقد ضيّق عليهم الخناق وبذلك ظهر ما يسمّى "بنازلة توات"، فما

كان من الإمام المغيلي الذي عرف بنشاطه في الدّعوة ومحاربة البدع والخرافات إلاّ أن أصدر فتوى أكّد فيها أنّ سيطرة اليهود على عموم نواحي الحياة في تلك الدّيار وبخاصة النّواحي الاقتصادية يتنافى مع مبدأ الذّلة والصّغار التي اشترطها الإسلام مقابل حمايتهم وعيشهم بين ظهراني المسلمين، وقد أثارت فتوى المغيلي ردود فعل كثيرة في أوساط معاصريه من العلماء بين مؤيّد ومعارضله، واشتدّ الخلاف بين المسلمين، وقد راسل كلا الفريقين أكبر العلماء في ذلك العصر في تلمسان وفي فاس وفي تونس، وكانت المدن الثّلاث العواصم السياسية والدّينية والثّقافية للأجزاء الثّلاثة من المغرب الإسلامي الكبير، وقد كان ممّن أيّد المغيلي في فتواه الإمام العلم محمّد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي الجزائري مؤلّف كتاب في ضبط القرآن الكريم "الطّراز على ضبط الخرّاز"، وكذا محمّد بن يوسف السنوسي الجزائري، وأبو عبد الله التّلمساني الحسني الجزائري عالم تلمسان وصالحها، وأحمد بن محمّد بن زكري المانوي أبو العبّاس المغراوي التّلمساني الجزائري مفتي تلمسان في زمنه، ويقول المؤرّخون:"... إنّه فور وصول جواب هؤلاء العلماء لواحة تمنطيط حمل الإمام المغيلي وأنصاره السّلاح وانقضّوا على كنائس اليهود فهدّموها دون تأخير".[19]

وهذا يدلّك على شدّته-رحمه الله-في دين الله وأخذه الحقّ بقوّة وحكمة ورويّة ومراجعة للعلماء والفقهاء، وهذا جانب من حياته الدّعويّة على ضوء تعاليم القرآن الكريم.

خاتمة

ومن خلال ما تمّ ذكره تظهر لنا الهمّة العالية التي كان يتمتّع بها الإمام محمّد بن عبد الكريم المغيلي وذلك من خلال رحلاته العلمية التي لم تكن للنّزهة ولا

للسياحة وإنّما كانت لأسمى المقاصد وأنبل الغايات وأكمل المطالب وهو نشر القرآن الكريم وعلومه ودراساته، والجهاد في سبيل تلقين الشّعوب والأمم كتاب ربّها وسنّة نبيّها -صلّى الله عليه وسلّم-.

ويظهر من خلال ذلك الأثر البالغ والكبير في تصحيح مفاهيم خاطئة طالما عشّشت في أذهان العامة والخاصة من النّاس في عصره-رحمه الله- عن الإسلام، كما يتبيّن لنا أيضاً أسبقيّته في إنشاء المدارس القرآنية لغرض العلم والتّدريس لاسيما ما يتعلّق بالقرآن وعلومه واللّغة العربية وقواعدها، وكان تركيز الإمام المغيلي في تلك الجهود منصباً على الحواضر الإفريقيّة.

كما أنّ كتاباته التي ألّفها بفضل الله تعالى مع كثرة رحلاته وضيق وقته الذي شغله في الدّعوة كانت سبباً في فتح كثير من القلوب والبلدان على القرآن وبالقرآن الكريم وعلومه وأحكامه فأقبلت الشّعوب تنهل من معينه الصّافي.

الإحالات والحواشي:

1- فرج عطا سالم، محمّد بن عبد الكريم المغيلي دراسة تاريخية، مجلّة عالم الكتب، العدد 3 أوت 1990م، ص341.

2- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ص330.

3- ابن خلدون، العبر في تاريخ من غبر، ج7، ص201، وأبو عبد الله التنسي، تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان، ص130-131.

4- عبد الحميد حاجيات، الجزائر عبر التّاريخ، ج3، ص431-434.

5- رابح بونار، مقدّمة تحقيق كتاب مصباح الأرواح في أصول الفلاح للمغيلي، ص13-14.

6- عبد القادر بن زيادية، التّلمساني محمّد بن عبد الكريم المغيلي بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان، مجلّة الأصالة، عدد26، ص202-215.

7- فراج عطا سالم، محمّد بن عبد الكريم المغيلي دراسة تاريخية، مجلة عالم الكتب، العدد 3، ص338.

8- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص217.

9- المصدر السّابق، ص218.

10- السّخاوي، الضّوء اللاّمع ج10، ص740، نقلا عن أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمّد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، سنة1981م، ج1، ص16.

11- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمّد بن أبي شنب ، الجزائر، 1908م، ص253، والحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، موفم للنّشر، الجزائر، ج1، ص196.

12- عثمان الكعاك، موجز التّاريخ العام للجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003، ص248.

13- أبو بكر ميغا، دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية، مجلة جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، العدد7، أكتوبر1992، ص176.

14- محمّد حجّي، الحركة الفكريّة بالمغرب في عهد السّعديين، دار الغرب، بيروت، 1976م، ج1/ص269، وأحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص331.

15- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، سير الأئمّة وأخبارهم، تحقيق :إسماعيل العربي، المكتبة الوطنيّة، الجزائر، 1979م، ص15.

16- أبو بكر ميغا، دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية، ص218.

17- المصدر السّابق، ص220.

18- المصدر السّابق، ص239.

19- ناصر الدّين سعيدوني، من التّراث التّاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م، ص266.